طالعه أن يكون متبوعاً ؛ وليس هذا من النبوة في شيء . بل الإيمان بالنبوة : أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن ادراك الالوان ، والبصر عن ادراك الاصوات ، وجميع الحواس عن ادراك المعقولات . فإن لم يجوز هذا ، فقد أقمنا البرهان على امكانه ، بل على وجوده . وان جوز هذا ، فقد اثبت ، ان ههنا أموراً تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حواليها أصلاً ، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها . فإن وزن دانق من الافيون ، سم قاتل لانه يجمد الدم في العروق لفرط برودته . والذي يدعي علم الطبيعة ، يزعم أنّ ما يبرد من المركبات ، انما يبرد بعنصري الماء والتراب ؛ فهما العنصران الباردان . ومعلوم ان ارطالاً من الماء والتراب لا يبلغ تبريدها في الباطن الى هذا الحد . فلو أخبر طبيعي بهذا ولم يجربه ، لقال : « هذا محال ، والدليل على استحالته ان فيه نارية وهوائية ، والهوائية والنارية لا تزيدها برودة ؛ فنقدر الكل ماء وتراباً ، فلا يوجب هذا الإفراط في التبريد . فإن انضم اليه حارّان فبأن لا يوجب ذلك أولى . » ويقدر هذا برهاناً ! واكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات ، مبني على هذا الجنس ! فانهم تصوروا الامور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يألفوه قدروا استحالته ، ولو لم تكن الرُؤْيا الصادقة مألوفة ، وادعى مدع ، انه عند ركود الحواس ، يعلم الغيب ، لانكره المتصفون بمثل هذه العقول . ولو قيل لواحد : هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء ، هو بمقدار حبة ، يوضع في بلدة فيأكل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه فلا يُبقي [شيئاً] من البلدة وما فيها ، ولا يبقى هو نفسه ؟ » لقال : « هذا لمحال وهو من جملة الخرافات ! » وهذه حالة النار ، ينكرها من لم يرَ النار اذا سمعها . واكثر [انكار] عجائب الآخرة هو من هذا القبيل . فنقول للطبيعي : « قد اضطررت الى ان تقول : في الافيون خاصية في التبريد ، ليست على قياس المعقول بالطبيعة . فلمَ لا يجوز ان يكون في الاوضاع الشرعية من الخواص ، في مداواة القلوب وتصفيتها ، ما لا يدرك بالحكمة العقلية ،

بل لا يبصر ذلك الا بعين النبوة ؟ » بل قد اعترفوا بخواص هي اعجب من هذا فيما اوردوه في كتبهم، وهي من الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق، بهذا الشكل :

ب	ط	د
ز	ه	ج
و	ا	ح

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

يكتب على خرقتين لم يصبهما ماء ، وتنظر اليهما الحامل بعينها، وتضعهما تحت قدميها، فيسرع الولد في الحال الى الخروج . وقد اقروا بإمكان ذلك واوردوه في « عجائب الخواص » ؛ وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوم مخصوصة ، يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر ، قرأته في طول الشكل او في عرضه او على التأريب .

فيا ليت شعري ! من يصدق بذلك ، ثم لا يتسع عقله للتصديق، بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاث ، هو لخواص غير معلومة بنظر الحكمة ؟ وسببها اختلاف هذه الاوقات . وانما تدرك هذه الخواص بنور النبوة . والعجب انّا لو غيرنا العبارة الى عبارة المنجمين ، لعقلوا اختلاف هذه الاوقات، فنقول : « أليس يختلف الحكم في الطالع ، بأن تكون الشمس في وسط السماء ، او في الطالع ، او في الغارب، حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج ، وتفاوت الاعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب ، فهل لتصديق ذلك سبب؟ » الا ان ذلك يسمعه بعبارة منجم ، لعله جرب كذبه مائة مرة . ولا يزال

يعاود تصديقه، حتى لو قال المنجم [له] : «اذا كانت الشمس في وسط السماء، ونظر اليها الكوكب الفلاني ، والطالع هو البرج الفلاني ، فلبست ثوباً جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب ! » فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت ، وربما يقاسي فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم وقد عرف كذبه مرات !

فليت شعري ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر الى الاعتراف بأنها خواص — معرفتها معجزة لبعض الانبياء — فكيف ينكر مثل ذلك، فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات، لم يعرف قط بالكذب ! (ولم لايتسع لامكانه !)

فان أنكر فلسفي امكان هذه الخواص في اعداد الركعات ، ورمي الجمار ، وعدد اركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الادوية والنجوم فرقاً اصلاً . فإن قال : « قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب، فوجدت بعضه صادقاً ، فانقدح في نفسي تصديقه وسقط من قلبي استبعاده ونفرته ؛ وهذا لم اجربه، فبم اعلم وجوده وتحقيقه؟ » وان اقررت بإمكانه، فأقول : « انك لا تقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت اخبار المجربين وقلدتهم ، فاسمع اقوال الأنبياء فقد جربوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك . »

على أني اقول : « وان لم تجربه ، فيقضي عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً . فإنا لو فرضنا رجلاً بلغ وعقل ولم يجرب (المرض) ، فمرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب ، يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواء، فقال : «هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك . » فماذا يقتضيه عقله، ان كان الدواء مراً كريه المذاق، أن يتناول؟ أو يكذب ويقول : « انا [لا] أعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء ، ولم أجربه ! » فلا شك انك تستحمقه ان فعل ذلك ! وكذلك يستحمقك اهل البصائر في توقفك ! فإن قلت : « فبم اعرف شفقة النبي ﷺ ومعرفته بهذا الطب ؟ » فأقول : « وبم عرفت [شفقة

ابيك] وليس ذلك أمراً محسوساً ؟ بل عرفتها بقرائن احواله وشواهد اعماله في مصادره وموارده علماً ضرورياً لا تتمارى فيه . »

ومن نظر في اقوال الرسول ﷺ ، وما ورد من الاخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق ، وتلطفه في جرّ الناس بأنواع الرفق واللطف ، الى تحسين الاخلاق واصلاح ذات البين ، وبالجملة الى ما يصلح به دينهم ودنياهم ، حصل له علم ضروري ، بأن شفقته ﷺ على أمته اعظم من شفقة الوالد على ولده .

وإذا نظر الى عجائب ما ظهر عليه من الافعال ، وإلى عجائب الغيب الذي أخبر عنه في القرآن على لسانه وفي الاخبار ، والى ما ذكره في آخر الزمان ، فظهر ذلك كما ذكره ، علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل ، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه الا الخواص ، والامور التي لايدركها العقل .

فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي ﷺ . فجرب وتأمل القرآن وطالع الاخبار ، تعرف ذلك بالعيان .

وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة اليه في هذا الزمان.

واما السبب الرابع — وهو ضعف الايمان بسبب سوء سيرة العلماء — فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور :

احدها : أن تقول : « إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام ومعرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر [ولحم الخنزير] والربا ، بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة ، وانت تعرف ذلك وتفعله ، لا لعدم ايمانك بأنه معصية ، بل لشهوتك الغالبة عليك ؛ فشهوته كشهوتك ، وقد غلبته كما غلبتك ، فعامه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين .

« وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد ، وان زجره

الطبيب عنه ! ولا يدل ذلك على أنه غير ضار ، او على ان الإيمان بالطب غير صحيح ، فهذا يحمل هفوات العلماء . »

الثاني : ان يقال للعامي : « ينبغي ان تعتقد ان العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيه ، ويكون شفيعاً له حتى يتساهل معه في أعماله ، لفضيلة علمه . وان جاز ان يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له ، وهو ممكن . فهو ، وان ترك العمل ، يدلي بالعلم . واما انت ايها العامي ! اذا نظرت اليه وتركت العمل وانت عن العلم عاطل ، فتهلك بسوء عملك ولا شفيع لك ! »

الثالث : وهو الحقيقة ، أن العالم الحقيقي ، لا يقارف معصية الا على سبيل الهفوة ، ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً . اذ العلم الحقيقي ما يعرّف أن المعصية سمٌ مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا . ومن عرَف ذلك ، لا يبيع الخير بما هو أدنى [منه] .

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس . فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم الا جرأة على معصية الله تعالى . واما العلم الحقيقي ، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً [ورجاءً] ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي الا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات ، وذلك لا يدل على ضعف الايمان. فالمؤمن مفتنٌ توّابٌ ، وهو بعيدٌ عن الإصرار والإكباب .

* * *

هذا ما اردت ان اذكره في ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من انكر عليهما ، لا بطريقه .

* * *

نسأل الله العظيم ان يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وارشده الى الحق وهداه ، وألهمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد الا اياه .